الدكتور حسن محمد باجودة
أستاذ ورئيس قسم الدراسات القرآنية البيانية
بجامعة أم القرى

من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم

الناشر
دار الكتاب الإسلامي
القاهرة

من صفات الرسول
صلى الله عليه وسلم

الدكتور حسن محمد باجودة
أستاذ ورئيس قسم الدراسات القرآنية البيانية
بجامعة أم القرى

دار الكتاب الإسلامي
محمد السيد سابق

الطبعة الأولى
رجب ١٤٠٣ — أبريل ١٩٨٣
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

دار الكتاب الإسلامى مدينة نصر ناصية شارع د . عبد الشافى محمد الحى السابع
القاهرة ت : ٦٠٤٧٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعـــــد :

عنوان هذا الكتاب : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ، مأخوذ من الآية الكريمة الأربعون من سورة الأحزاب المدنية الكريمة . والآية الكريمة تعرض لقضايا ثلاث رئيسية . القضية الأولى كونه صلى الله عليه وسلم ليس أبا أحد من رجال المؤمنين . وهذه الحقيقة توج بها معالجة السورة الكريمة لعادة التبنى وتبيين وجه الحق فيها ، ولذلك ارتباط بزيد بن حارثة مولى النبى صلى الله عليه وسلم ومتبناه ، وبزينب بنت جحش مطلقة زيد التى زوجهاالله تعالى رسوله الكريم كى يقضى عمليا على ظاهرة التبنى ، إضافة إلى القضاء النظرى السابق فى السورة على هذه العادة . والقضية الثانية كونه صلى الله عليه وسلم رسول الله ، وهذه أكبر نعم الله تعالى على عبد من عباده جل وعلا . والقضية الثالثة كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين . وهذه نعمة خص بها صلى الله عليه وسلم ، ولا تكاد تقل عن النعمة السابقة ، فقد ختم به صلى الله عليه وسلم النبيون ، ومن باب أولى المرسلون ، لأن النبوة باب الرسالة وفى إغلاق باب النبوة إغلاق ضمنى لباب الرسالة .

وبما أن سورة الأحزاب الكريمة قد عنيت بشخص الرسول الكريم عناية بالغة ، فقد حاولنا أن نجمع فى نسق بين أهم مظاهر العناية فى السورة الكريمة بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك تحت العناوين الفرعية التالية : النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم . لكم فى رسول الله أسوة حسنة . المصطفى صلى الله عليه وسلم سراج منير . يا أيها الرسول يا أيها النبي . الله وملائكته يصلون على النبي . وقد أعطينا هـــذا الكتاب عنواناً هو [من صفات النبي الرسول صلى الله عليه وسلم] لأن الجامع بين موضوعات الكتاب هو أنها صفات المصطفى صلى الله عليه وسلم

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل ، وأن يتقبله منا ، وأن يوفقنا لكل ما يحب ويرضى ، إنه على كل شيء قدير . سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعـــين .

مكة المكرمة :

يوم الجمعة ١٤٠٢/١١/٢٢ هـ .

الموافق ١٩٨٢/٩/١٠ م .

كتبه الفقير إلى عفو ربه

د . حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية ، كلية اللغة العربية جامعة أم القرى

مكة المكرمـــــة

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ .

واضح أن عنوان هذا الكتاب ، جزء من الآية الكريمة الأربعين من سورة الأحزاب .

قال تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ وواضح كذلك أنه يتكون من شقين اثنين أو يتضمن موضوعين اثنين .

أما الموضوع الأول فهو كونه صلى الله عليه وسلم ليس أبا أحد من رجال المؤمنين ، « فإنه صلى الله عليه وسلم لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ، فإنه صلى الله عليه وسلم ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضى الله عنها فماتوا صغاراً ، وولد له صلى الله عليه وسلم إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضاً رضيعاً . وكان له صلى الله عليه وسلم من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، رضى الله عنهن أجمعين . فمات فى حياته صلى الله عليه وسلم ثلاث ، وتأخرت فاطمة رضى الله عنها حتى أصيبت به صلى الله عليه وسلم . ثم ماتت بعده لستة أشهر » (١) وأن نفى الآية الكريمة أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم أبا أحد

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٢ .

من رجال المؤمنين ، يشمل كذلك الابن المتبنى ، أعنى زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه الذى أعتقه المصطفى صلى الله عليه وسلم وتبناه ، على عادة العاب ، وقد شاءت العناية الإلهية القضاء على هذه العادة ، وها هى ذى سورة الأحزاب ، تقضى على هذه العادة فى موضعين منها : الموضع الأول الذى تم فيه القضاء نظرياً على هذه العادة وذلك فى الآيتين الكريمتين الرابعة والخامسة . قال تعالى : ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل * ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ، وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما﴾ . والموضع الثانى الذى تم فيه القضاء عمليا على هذه العادة ، فقد شاءت العناية الإلهية أن يخطب المصطفى صلى الله عليه وسلم زينب ابنة جحش على مولاه ومتبناه زيد ابن حارثة ، كما شاءت العناية الإلهية أن يتزوج المصطفى صلى الله عليه وسلم مطلقة مولاه ومتبناه . وقد أشارت إلى هذه الأمور الآيات الكريمات فى سورة الأحزاب من السادسة الثلاثين إلى الأربعين ، والآية الأخيرة هى التى استقى منها الكتاب عنوانه . قال تعالى : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً * وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه

أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا * ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً * الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ، وكفى بالله حسيباً * ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما ﴾ .

أما الموضوع الثانى فهو كونه صلى الله عليه وسلم رسول الله وخاتم النبيين قال تعالى :﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ .

وإن كلا من الموضوعين بحاجة منا إلى أن نقف عنده وقفة متأنية .

فمع الموضـــوع الأول :

﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾

بما أن الحديث عن الموضوع الأول قد جاء فى موضعين اثنين من سورة الأحزاب ، فإنا نود أن نتأمل كلا من المـــوضعين الاثنين على التوالى . وهذا هو الموضع الأول . قال تعالى :

﴿ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل * ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما﴾ ويمكن أن يقال فى هذا الصدد :

أولا : « وطأت الآية الكريمة الأولى للحديث فى قضية تنزيل الدعى منزلة الابن من الصلب ، بالحديث فى قضيتين اثنتين أو موضوعين اثنين . وبتدبر القضايا الثلاث أو الموضوعات الثلاثة ، يتضح التدرج المستمر والتحول الدائم من أبسط القضايا وأوضح الموضوعات وأقرب الأمور تناولا ، إلى الذى يلى ذلك بعداً وشدة . فأول هذه الأمور وأقربها تناولا وأشدها وضوحاً ، الزعم بأن من عباد الله تعالى من له قلبان اثنان ، وربما أردف هذا الزعم الكاذب ، بزعم آخر من كون صاحب ذينك القلبين يعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الإنسان الكامل . وثانى هذه الأمور قوة وخطورة تنزيل العرب الزوجة المظاهر منها بالقول مثلا : أنت على كظهر أمى ، منزلة الأم الرءوم . لقد كان الظهار يعتبر طلاقاً ، وأن رب العزة ، يبين فى محكم كتابه بشاعة ذلك الادعاء ، وعظم ذلك الخطأ ، حيث إن الجرأة قد بلغت بالعرب المستوى الذى يستطيع معه الواحد منهم أن ينزل زوجته بكلمة طائشة يجرى بها لسانه منزلة

الأم ، وبذلك تحرم زوجته عليه لأن الظهار آنذاك ينزل الزوجة من زوجها منزلة والدته . وواضح أن هذا الخطأ أعقد من سابقه وأشد منه خطورة . وثالث هذه الأمور وآخرها أعمقها ، وأشدها تغلغلا فى صميم المجتمع العربى آنذاك ، وأكثرها فتكاً به ، وهو الزعم بأن الابن بالتبنى ، يتحول بهذه العملية إلى منزلة الابن من الصلب ، حيث إنه يكون له كل حقوق ذلك الابن من الصلب ، بما فى ذلك الخلوة بالمحارم والإرث وما إلى ذلك . ولا شك أن هذا الأمر أشد الأمور الثلاثة خطورة ، لذلك استأثر فى هذه السورة الكريمة ، بالعناية الأكبر .

إن الآية الكريمة ترتب الأمور الثلاثة متحولة إلى الأمر الأشد أهمية وخطراً . قال تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياكم أبناءكم ﴾ أن رب العزة قد اقتضت حكمته ألا يكون لإنسان واحد قلبان . فما يقال من أن ثمة شخصاً ما له قلبان ، هو قول لا أصل له ولا معنى تحته ولا حقيقة وراءه (١) .

---

(١) ويستوى فى ذلك أن ينظر إلى القلب من الزاوية الحسية أو الناحية المعنوية . لقد شاءت العناية الإلهية التى خلقت الإنسان فى أحسن تقويم ، أن يكون فى القلب الواحد الكفاية والغناء ، فلا يخرج عن هذه القاعدة المطردة إنسان واحد . ولو نظرنا إلى هذا القلب الواحد ، من الزاوية المعنوية لاستطعنا أن ننتهى إلى أن له موقفاً واحداً معيناً بين الحب والكره ، الإقبال والإدبار ، بشأن كل أمر من الأمور ، التى يمتلىء بها القلب ، والتى يختلف القلب عن الآخر فى نوع الأمر من الأمور التى يمتلىء =

وإن رب العزة قد اقتضت حكمته كذلك أن ينقذ الأمة من ويلات الظهار الذى كان آنذاك يعتبر طلاقاً . وقد أساءت هذه العادة على وجه الخصوص إلى الزوجة التى تنزلها كلمة طائشة حمقاء منزلة الأم ، وإلى الأم التى سهل التطاول على مقامها وكثر ، فكلما غضب زوج من زوجه حرمها عليه بالتظاهر منها بقوله لها مثلا : أنت على كظهر أمى . ويبدو تمثل العرب الجيد لهول معانى ما يقولون ، من كونهم تحولوا من القول للزوجة أنت على كبطن أمى ، إلى القول أنت على كظهر أمى ، فراراً من البطن الذى يرتبط به إتيان الزوجة من حيث أمر الله تعالى . كما أساءت هذه العادة إلى الأبناء الذين هم عرضة للضياع بسبب هذه الكلمة الشائعة على ألسنة العرب الطائشة . ويبدو ذلك من شكوى المجادلة خولة بنت

=بها وفى الكمية . وكأن النظرة المعنوية إلى القلب فى قوله تعالى : (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) تريد من كل قلب أن يمتلىء بحب الله تعالى بل أن يفيض بهذا الحب ، فلا ينبغى أن يزاحم أى نوع من أنواع الحب ، حب الله تعالى . وكأن هذه النظرة تنظر إلى هذه الجزئية الكريمة ، من ذات الزاوية التى نظر خلالها الكثير من علماء السلف إلى قوله تعالى من سورة الرعد ، الآية السابعة عشر : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال) لقد نزل هذا الفريق من العلماء الأودية منزلة القلوب ، وفسر الماء الذى يسيل فيها بماء معانى القرآن الكريم وتعاليمه . ومعروف أن القلوب تتفاوت فى اتساعها واستعدادها لتقبل ماء معانى القرآن الكريم وانتفاعها به . تفاوت الأودية فى اتساعها لتقبل مياه الأمطار وانتفاعها بها . قال تعالى : (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) .

ثعلبة إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم ، خوفها على صغارها بعد أن ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت ، إنها إن ضممتهم إليه ضاعوا ، أو إليها جاعوا . وتشاء العناية الإلهية ورحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء أن تضع حداً صارماً لذلك العبث والتطاول على مقام الأمومة ، وكان ذلك في الآيات المتقدمة من سورة المجادلة التي بينت الكفارة التي تجب على المظاهر من زوجته ، بأن يعتق رقبة إن استطاع من قبل أن يتماسا ، أو أن يصوم شهرين متتابعين ، أو أن يطعم ستين مسكيناً . قال تعالى(١) : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ .

وأن الحق جل وعلا قد اقتضت حكمته أن يقول الحق ويهدي السبيل ، بشأن القضية الثالثة ، أشد القضايا خطراً ، وهي التي

---

(١) سورة المجادلة ١ — ٤ .

ينزل معها العرب من تبنوا منزلة الابن من الصلب ، وبذلك يكون له كل ما للابن من الصلب من الحقوق . وقد نزلت الآية الكريمة « في شأن زيد بن حارثة رضى الله عنه ، مولى النبي صلى الله عليه وسلم ، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تبناه قبل النبوة فكان يقال له : زيد بن محمد، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى : ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ . كما قال تعالى في أثناء السورة : ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما﴾ . وقال ههنا : ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ يعني تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنا حقيقياً ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان ؛ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . قال سعيد بن جبير : يقول الحق : أى العدل . وقال قتادة : وهو يهدى السبيل : أى الصراط المستقيم » (١) عن عبد الله بن عمر قال : إن زيد بن حارثة رضى الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ ، وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى (٢) وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ، فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٦٥ .
(٢) نفسه ٣/٤٦٦ .

ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة رضى الله عنهما : يارسول الله إنا كنا ندعو سالماً ابناً ، وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل على وأنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئاً . فقال صلى الله عليه وسلم : « أرضعيه تحرمى عليه » الحديث(١) ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعى ، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضى الله عنه ، وقال عز وجل : ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ . وقال تبارك وتعالى فى آية التحريم (٢) : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ احترازاً عن زوجة الدعى فإنه ليس من الصلب (٣) .

ثانيا : بشأن الآية الكريمة الثانية ، قال تعالى : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما ﴾ أمر جل وعلا برد الأدعياء إلى آبائهم الحقيقيين ، فذلك أعدل عند الله تعالى ، لأن فيه رفع كل أنواع الظلم عن الأطراف المعنية وإعادة الأمر إلى نصابه . وفى

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٦٦ وانظر فى الفقة باب رضاع الكبير .
(٢) سورة النساء ٢٣ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣/٤٦٦ .

حالة عدم معرفة الآباء بعد الاجتهاد ، فهم إخوان للمسلمين ومواليهم ، أى عوضاً عن النسب الذى فاتهم ، خرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة عام عمرة القضاء وتبعتهم ابنة حمزة شهيد أحد رضى الله عنه ، تنادى ياعم ياعم ، فأخذها على رضى الله عنه وقال لفاطمة رضى الله عنها : دونك ابنة عمك . فاحتملتها ، فاختصم فيها على وزيد وجعفر رضى الله عنهم فى أيهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة . فقال على رضى الله عنه : أنا أحق بها وهى ابنه عمى . وقال زيد : ابنة أخى . وقال جعفر بن أبى طالب : ابنة عمى وخالتها تحتى ، يعنى أسماء بنت عميس ، فقضى بها النبى صلى الله عليه وسلم لخالتها وقال : «الخالة بمنزلة الأم» وقال لعلى رضى الله عنه : « أنت منى وأنا منك » وقال لجعفر رضى الله عنه : « أشبهت خلقى وخلقى » وقال لزيد رضى الله عنه : « أنت أخونا ومولانا » ففى هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها أنه صلى الله عليه وسلم حكم بالحق وأرضى كلا من المتنازعين وقال لزيد رضى الله عنه : أنت أخونا ومولانا كما قال تعالى : ﴿ فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ (١) .

ثالثا : بينت الآية الكريمة الثانية أنه بعد الاجتهاد فى البحث عن والد الدعى والإخلاص فى محاولة الوصول إلى الأب الحقيقى ، وعدم التوفيق بعد ذلك السعى الحثيث فإن الله تعالى غفور رحيم . ولكن حذار من التهاون فى البحث ، أو الإهمال فيه ، أو عدم

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٦٦ .

الاهتمام به أساساً ، أو عدم الالتزام بنتائج البحث التى أدت إلى معرفة الأب الحقيقى . إن الذنب حينئذ عظيم والعقاب أليم ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما﴾ فى صحيح البخارى عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران . وإن اجتهد فأخطأ فله أجر» . وفى الحديث الآخر : «إن الله تعالى رفع عن أمتى الخطأ والنسيان والأمر الذى يكرهون عليه» وقال تبارك وتعالى ههنا : ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولـكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما﴾ أى وإنمـــا الإثم على من تعمد الباطل كما قال عـــز وجل : ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ الآية (١) .

أما الموضع الثانى فى السورة الكريمة الذى جاء فيه الحديث عن ظاهرة التبنى ، فهو الذى تم فيه القضاء عملياً على هذه الظاهرة ، بعد أن كان الموضع الأول من نصيب الجانب النظرى . وهذا الموضع الثانى يشمل الآيات من سورة الأحزاب ، من السادسة والثلاثين إلى الأربعين . قال تعالى : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً * وإذ تقول للذى أنعم

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٧/٣ والآية هى التاسعة والثمانون من سورة المائدة أو الآية الخامسة والعشرون بعد المائتين من سورة البقرة .

الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا * ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً * الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً * ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ .

وعلى غرار حديثنا عن آيتي الموضع الأول النظرى ، يمكن أن يقال عن آيات هذا الموضع العملى ما يلى :

أولا : مع أن الآية الكريمة الأولى : ﴿ وما كان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً ﴾ تشمل كل مؤمن ومؤمنة في كل أمر من أمورهم ، وبذلك هي تأخذ بسبب من قوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (١) فإن الآية الكريمة فيما يقال ، تعني في المقام الأول زينب بنت جحش وأخاها (٢) .

---

(١) سورة النساء ٦٥ .

(٢) انظر الكشاف ٥٣٩/٢ وتفسير ابن كثير ٤٩١/٣ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ الآية . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضى الله عنه فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها فخطبها فقالت : لست بناكحته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى فانكحيه ، قالت : يارسول الله أؤامر نفسى . فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ﴾ الآية . قالت : قد رضيته لى يارسول الله منكحاً ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . قالت : إذن لا أعصى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنكحته نفسى » (١)
عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضى الله عنه فاستنكفت منه وقالت : أنا خير منه حسباً . وكانت امرأة فيها حدة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ الآية كلها » وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل (٢) .

ثانيا : ومع كون الآية الكريمة قد ارتبط نزولها بحادثة معينة . فإنها وراء ذلك عامة فى جميع الأمور . وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشىء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ولا

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٨٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٨٩ .

رأى ولا قول(١) . وفى الحديث : « والذى نفسى بيده ، ولا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ولهذا شدد فى خلاف ذلك فقال : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (٢) .

ثالثا : إن المخاطب فى الآية الكريمة الثانية هو المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وإن المنعم عليه من الله تعالى ومن المصطفى صلى الله عليه وسلم هو زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه . وأن الذى من الله تعالى به عليه هو نعمة الإيمان ، أكبر نعم الله تعالى على العبد ، وهذه شهادة من الله تعالى لزيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه . وأن الذى من المصطفى صلى الله عليه وسلم به على زيد هو نعمة العتق . إن زيداً رضى الله تعالى عنه ينتمى أصلا إلى إحدى القبائل العربية (٣) وقد أسر وهو صغير فى إحدى الغزوات ، فأصبح رقيقاً كعادة العرب آنذاك وسواهم فى استرقاق من يأسرون فى الحروب ، وقد اشتراه حكيم بن حزام (٤) لعمته خديجة رضى الله تعالى عنها التى وهبته للنبى صلى الله عليه وسلم . وعلم والد زيد وعمه

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٠ .
(٣) انظر تفسير القرطبى ٥٢٠٠ .
(٤) انظر تفسير القرطبى ٥٢٠٠ .

بمكانه ووصلا إليه وفاتحاه فى العودة معهما على أن يدفعا للنبى صلى الله عليه وسلم ما يريد من فداء . فخيره صلى الله عليه وسلم وذلك قبل البعث بين الذهاب مع والده وعمه دون فداء وبين البقاء معه صلى الله عليه وسلم ، فاختار المصطفى صلى الله عليه وسلم . فأعتقه عليه الصلاة والسلام وتبناه على عادة العرب آنذاك ، وعاد الوالد والعم من حيث أتيا وأصبح زيد يدعى : زيد بن محمد وليس زيد بن حارثة ، حتى بين القرآن الكريم وجه الحق فى هذه المسألة ، وتحقيقاً لمبدأ المساواة فى الإسلام ، ولحكم أخرى اقتضتها إرادة الحكيم الخبير ، ومنها القضاء عملياً على عادة التبنى ، شاءت العناية الإلهية أن يتزوج زيد بن حارثة مولى النبى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ، ابنة عمة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومن الذى يذهب من أجل تحقيق هذا الهدف السامى النبيل ؟ إنه محمدبن عبدالله صلى الله عليه وسلم نفسه . إن الروايات تقول إن النبى صلى الله عليه وسلم حينما ذهب ليخطب زينب على زيد بن حارثة . وكان ذلك قبل أن يفرض الحجاب ، ظنت أول الأمر أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما جاء من أجل أن يخطبها لنفسه (١) ، ولكن حينما علمت أنه جاء يخطبها على مولاه زيد ، استنكفت أول الأمر هى وأخوها ثم أوحى الله تعالى إلى رسوله الآية الكريمة السابقة التى تبين أنه ﴿ ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله

---

(١) لباب النقول ص ١٧٤ .

أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ فرضيت زينب ورضى أخوها. وبهذا يتبين أنه لا معنى مطلقاً لما يقال من أنه صلى الله عليه وسلم يريدها لنفسه . إذ كيف يمكن التوفيق بين ذهابه صلى الله عليه وسلم بنفسه لإقناع زينب قبول الزواج من زيد وهى التى ظنت أن النبي صلى الله عليه وسلم يريدها لنفسه ففرحت وبين الزعم بأنه صلى الله عليه وسلم كان يريدها لنفسه . إذ ما الذى يمنع النبي صلى الله عليه وسلم عقلا ونقلا أن يتزوجها إن كان الأمر كما ذكر . الحقيقة أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما ذهب لخطبة زينب على زيد بإيحاء من الله تعالى له صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك وقد فعل .

بقى أن يعلم أن زينب بنت جحش حينما خطبها صلى الله عليه وسلم على زيد بن حارثة كانت سنها زهاء ست وثلاثين سنة (١) ولا نريد التعليق على هذه السن المتأخرة بالنسبة للمرأة . فإذا عرفنا أنها عاشرت زيداً سنة واحدة (٢) ثم طلقها ، وبعد انقضاء العدة ، وهى ثلاثة قروء فى حقها رضى الله تعالى عنها ، تزوجها المصطفى

---

(١) تزوجها صلى الله عليه وسلم سنة خمس من الهجرة وتوفيت سنة عشرين وهى بنت ثلاث وخمسين سنة ومكثت مع زيد زهاء سنة واحدة ، انظر تفسير القرطبى : ٥٢٤٧ ، ٥٢٤٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٩١ .

صلى الله عليه وسلم بأمر من ربه ، استطعنا أن نفهم بداهة أنها حينما تزوجت المصطفى صلى الله عليه وسلم كانت فى حدود الثامنة والثلاثين من عمرها رضى الله تعالى عنها .

إن العشرة بين زينب وزيد ، حينما استحالت ، وهم زيد بطلاقها ، لم يكن ليقدم على ذلك دون إعلام المصطفى صلى الله عليه وسلم بذلك . وما الذى ينتظر — من زاويتنا نحن البشر — من المصطفى صلى الله عليه وسلم ، رحمة الله المهداة ، ونعمته المسداة ؟ المنتظر منه ، وهو الرءوف الرحيم ، أن يعمل على رأب الصدع ولم شتات الأمر . ولكن بالنسبة لهذه المسألة بالذات ، كان رب العزة قد أوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، أن زيداً سيطلق زينب وأنها ستكون من أزواجه صلى الله عليه وسلم . إن عتاب رب العزة لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أنه أخفى فى نفسه ما أوحى الله تعالى إليه من كونه جل وعلا سيزوجه زينب بعد أن يطلقها متبناه زيد ، لحكمة أرادها الحكيم الخبير ، وهى القضاء على عادة العرب فى تنزيل زوجة المتبنى منزلة زوجة الابن من الصلب ، مع أن العلاقة بين الأمرين منبتة ، وأنه صلى الله عليه وسلم إنما أخفى هذا الوحى الذى يتعلق به خاصة ، والذى سيظهر بطبعه فى حينه . لأنه خشى الناس ، أن يقولوا تزوج مطلقة ابنه ، مع أن هذه المطلقة زوجة المتبنى وليست زوجة الابن ، وهذه هى الحكمة التى أرادت الآيات الكريمات تبيينها ، فالذى خشيه المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يتفوه به المنافقون واليهود والكافرون وكل الذين

فى قلوبهم مرض ، بأن يقولوا تزوج مطلقة متبناه . هو عين الحكمة التى أرادها الحكيم الذى هو أحق بأن يخشاه المصطفى صلى الله عليه وسلم . وكيف لا يكون الأمر كذلك ، وأن المصطفى صلى الله عليه وسلم أشرف الأنبياء والمرسلين وزعيمهم الذين نعتتهم الآيات الكريمات بأنهم يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله تعالى ، فلا مكان مطلقاً لما أحس به المصطفى صلى الله عليه وسلم من حرج فيما فرض الله تعالى له من زواجه صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش .

إن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، هو دائماً وأبداً ، زعيم أولى العزم من الرسل . وها هو ذا يترجم إلى عمل ما أوحى الله تعالى به إليه من زواجه من زينب ، فيبعث زيد بن حارثة إلى زينب من أجل هذا الغرض . وكما سدد رب العزة خطا المصطفى صلى الله عليه وسلم الذى ذهب بنفسه من قبل كى يخطب زينب على زيد فأوحى إليه قرآناً يتلى ، سدد خطاه صلى الله عليه وسلم وقد بعث زيداً إلى زينب امتثالا لأوامره جل وعلا ، فأوحى إليه كذلك قرآناً يتلى . إن المصطفى صلى الله عليه وسلم يمتثل فى كل الأحوال أوامر ربه الذى يسدد خطاه ويثبت فؤاده .

وإن علينا أن نتمثل شريط الأحداث جيداً ، كى نتبين مظهراً من مظاهر كونه عليه الصلاة والسلام من أولى العزم من الرسل ، بل زعيم أولى العزم منهم ، أنه عليه الصلاة والسلام يأمره ربه جل

وعلا أن يخطب زينب الأسدية الفتاة البكر من زيد بن حارثة مولاه ومتبناه سابقاً . ويبادر عليه الصلاة والسلام إلى امتثال أمر ربه جل وعلا الذى يسدد خطاه بقرآن يوحى . ثم يوحى رب العزة إلى رسوله الكريم بأن زيداً سيطلق زينب وأنها كفاء امتثالها لقضاء الله تعالى ستكون إحدى أمهات المؤمنين . وبعد عام من العشرة غير الموفقة يتم الطلاق وتنتهى العدة . وهنا يبادر المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى امتثال أمر ربه بزواجه من زينب مطلقة مولاه ومتبناه سابقاً ويأخذ فى الأسباب ، وفى تلك الأثناء يوحى الله تعالى إلى نبيه قرآناً يتلى يبين فيه أنه زوجه من زينب مطلقة زيد بعد أن عاشرها معاشرة الأزواج ولم يعد له فيها أدنى رغبة أو حاجة فطلقها وقضت عدتها . إنه عليه الصلاة والسلام يذهب بنفسه كى يخطب زينب البكر لزيد امتثالا لأمر ربه ، ويتزوج هو نفسه زينب المرأة الثيب امتثالا لأمر ربه ، وكى يلفت القرآن الكريم الانتباه إلى الحكمة من زواجه صلى الله عليه وسلم من زينب يتم النص الصريح على كون زيد قد قضى من زينب وطره بمعنى حاجته وأربه (١) . إنه زواج حقيقى قد أدى الغرض من الزواج . وكى يقضى على عادة العرب فى التبنى من جذورها ، شاءت العناية الإلهية أن يكون شخص المصطفى صلى الله عليه وسلم هو الذى ينفذ التعاليم السماوية من أولها إلى آخرها . إن زيداً هو ابن حارثة وليس ابن محمد ، وإن أكبر دليل على ذلك ، هو أن محمداً صلى الله عليه وسلم يتزوج ، بل يزوجه

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٩١ .

مطلقة متبناه زيد . وإذا كانت زينب قد أكرمها الله تعالى كفاء امتثالها أوامره جل وعلا بأن أصبحت إحدى أمهات المؤمنين ، فإن رب العزة يكرم زيداً ، الذى ذهب عنه شرف انتسابه إلى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، بأن جاء اسمه وحده ، دون سائر أفراد الأمة المحمدية ، فى القرآن الكريم بصريح اللفظ . ما أكرمه جل وعلا وأرأفه بعباده الصالحين . عن أنس رضى الله عنه قال : لما انقضت عدة زينب رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة : «اذهب فاذكرها على» . فانطلق حتى أتاها وهى تخمر عجينها قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها . فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى وقلت : يازينب أبشرى ، أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربى عز وجل . فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن(١) ، وكان الذى ولى تزوجها منه هو الله عز وجل ، بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر (٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٩١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩١ .

وقد روى البخارى رحمه الله عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن زينب بنت جحش رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات (١) .

رابعا : إن شخص المصطفى صلى الله عليه وسلم إذا كان هو المنفذ لهذا القانون السماوى ، بأن من حق المتبنى أن يتزوج مطلقة متبناه ، فإن كل أفراد الأمة المحمدية تبع له صلى الله عليه وسلم فى ذلك . وقد نصت الآية الكريمة على ذلك .

قال تعالى : ﴿فلما قضى زيد منها وطرآ زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرآ وكان أمر الله مفعولا﴾ .

خامسا : إن زيد بن حارثة الذى خصه الله تعالى بأن ذكر اسمه ، دون سائر أفراد الأمة المحمدية ، فى القرآن الكريم ، كان سيدا كبير الشأن جليل القدر حبيبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم . يقال له : الحب . ويقال لابنه أسامة : الحب ابن الحب . قالت عائشة رضى الله عنها : ما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٩١ .

سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه [رواه الإمام أحمد] (١) .

سادسا : عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لو كتم محمد صلى الله عليه وسلم شيئا مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكتم : ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾(٢) .

سابعا : إن الحرج الذى أحس به المصطفى صلى الله عليه وسلم والذى خشى الناس من أجله لا مكان له أساسا بنص الآية الكريمة ، لأن رب العزة هو الذى فرض له صلى الله عليه وسلم ذلك ، وهذه هى سنته جل وعلا فى الأنبياء السابقين : « أى هذا حكم الله تعالى فى الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشىء وعليهم فى ذلك حرج . وهذا رد عن من توهم من المنافقين نقصا فى تزوجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذى كان قد تبناه . وكان أمر الله قدرا مقدورا . أى وكان أمره الذى يقدره كائنا لا محالة ، وواقعا لا محيد عنه ولا معدل . فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»(٣) قال تعالى :﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٩٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٩١ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٩٢ .

ثامنا : الآية الكريمة التالية : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ، وكفى بالله حسيبا ﴾ تشمل الأنبياء الذين أشارت إليهم الآية الكريمة السابقة ونصت على كونه جل وعلا قد رفع عنهم الحرج فيما فرض الله تعالى لهم . وها هى ذى الآية الكريمة تنعت هؤلاء الأنبياء بكونهم يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله : « وسيد الناس فى هذا المقام بل فى كل مقام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب إلى جميع أنواع بنى آدم ، وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبى قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو صلى الله عليه وسلم فإنه بعث إلى جميع الخلق ، عربهم وعجمهم ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾(١) ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضى الله عنهم ، بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله . فى ليله ونهاره وحضره وسفره وسره وعلانيته ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يقتدى المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون . فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم » (٢) .

---

(١) سورة الأعراف ١٥٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٢ .

تاسعا : توج الحديث عن هذا الموضوع فى الموضع الثانى من السورة بتقرير مجموعة من الحقائق . وأولى هذه الحقائق هى التى يحاول خصوم الإسلام طمسها بأن يوهموا بأن زيدا هو ابن محمد ، فكيف يتزوج مطلقته . وتبين الآية الكريمة الحقيقة من كونه صلى الله عليه وسلم ليس أبا أحد من رجال المؤمنين لا من صلبه ولا من صلب رجل آخر ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يعش له ولد ذكر بلغ مبلغ الرجال ، ثم إن زيدا هو ابن حارثة وليس ابن محمد ، فما أوحى الله تعالى لرسوله من زواجه بزينب هو عين الصواب والحكمة وهو يتمشى مع آية سورة النساء فى تحريم زواج زوجة الابن من الصلب ، ولا علاقة له بالدعى . وتردف هذه الحقيقة بحقيقتين أخريين هما أكبر نعم الله تعالى على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وهما نعمتا الرسالة والنبوة . وإن الشق التالى من الدراسة سيتناول بإذن الله تعالى هذا الأمر . على أنا نود أن نختم حديثنا فى هذا الموضوع بكون النص فى هذه الآية الكريمة الأخيرة على كون محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ليس أبا أحد من رجال المؤمنين ، إلى جوار النص على النعمتين الكبريين ، يعنى أن عادة التبنى عند العرب ، كانت من التغلغل فى أحشاء المجتمع العربى والفتك به ، للدرك الذى استحقت معه أن يتعاون على القضاء عليها التبيين النظرى فى القرآن الكريم لحقيقتها ، والتطبيق العملى من قبل شخص الرسول الكريم من أجل تعميق تلك الحقيقة والقضاء على ذلك الزيف : ﴿ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾ . ونتحول إلى الموضوع الثانى .

محمد رسول الله وخاتم النبيين

تبينا أن عنوان الكتاب ذو الشقين مستق من الآية الكريمة الأربعين من سورة الأحزاب . قال تعالى : ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما﴾ وبتدبرنا لهذا الشق الثانى من الدراسة يتبين أنه بدوره يتكون من شقين اثنين أحدهما أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول . وثانيهما أنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين . وحينما نتبين أن أعظم النعم التى يصطفى الله تعالى بها بعضا من عباده هى على التوالى نعمة الرسالة ونعمة النبوة ، وقد جاء النص فى القرآن الكريم على هذه الحقيقة وذلك فى قوله تعالى . من سورة النساء (١) : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما﴾ استطعنا أن نفهم أن صدر الآية الكريمة :﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ يشير إلى أمر غاية فى الأهمية ، لأنه صح أن يتم التحول منه إلى أكبر نعم الله تعالى على عبده وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم . وإن الأمر لكذلك . وإنا لنستطيع ان نتبين هذه الأهمية من زاوية النظر إلى المعنيين بالخطاب فى المقام الإول وهم العرب

---

(١) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠ .

الذين تغلغلت فيهم هذه العادة للدرجة التى ذابت معها الفوارق بين الدعى وبين الابن من الصلب . ومن زاوية النظر إلى السياق ذاته فى الآية الكريمة .

إنه بالنظر إلى صدر الآية الكريمة من زاوية المعنيين بالحديث فى المقام الأول ، وهم الذين تغلغلت فيهم هذه العادة ، نستطيع أن نفهم من التحول فى الآية الكريمة إلى نعمتى الرسالة والنبوة فى حقه صلى الله عليه وسلم ، أن هذه العادة من زاوية نظر العرب ، تعتبر أمرا راسخا فى أعماقهم ، قد أشربته قلوبهم فلا مكان فى اعتقادهم لمجرد مناقشة هذا الأمر بحال من الأحوال . إنه لا فرق فى اعتقادهم بين الدعى وبين الابن من الصلب ، فمن حق هذا الدعى أن ينال حقوق الابن من الصلب ، خاصة إذا تبين أن عملية التبنى إنما تحدث بناء على اقتناع الرجل بحصول النفع ووصول الخير عن طريق ذلك المتبنى الذى وصل بالفعل خيره ، أو الذى لاحت تباشير نفعه . ومعروف أن الذى يلجأ إلى هذه العادة غالبا هو عديم الذرية أو فاقد النفع من أولاده من صلبه . وكل ذلك معمق لحقيقة اقتناع العرب قبل الإسلام ومن فى حكمهم بكون الدعى ، من حقه أن ينال حقوق الابن من الصلب ، إن لم يزد على ذلك لأن نفعه أكيد على عكس الابن من الصلب الذى قد يصل شره دون خيره . ولو أنا عدنا إلى بعض عادات العرب السيئة قبل الإسلام فيما يسمى بنكاح

الاستبضاع (١) ، بأن يعجب الرجل بفحولة رجل آخر ، فيطلب الأول من زوجه أن تتصل بذلك الرجل الآخر كي تحصل للأول على ولد في مثل فحولة الثاني ، فلا شك أن آفة التبني أقل ضررا من تلك .

ومثل هذا التصرف الأحمق من قبل بعض الأزواج والزوجات ، يعمق نظرة الرضا من قبل العرب لظاهرة التبني ، وتغلغلها في أحشاء المجتمع ، وتعمقها في أفئدة القوم ، للدرجة التي صح معها في الآية الكريمة أن يجعل ماله علاقة بها ، من كونه صلى الله عليه وسلم ليس أبا زيد وغير زيد توطئة إلى أكبر نعمتين أنعم الله تعالى بهما على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وهما نعمتا الرسالة والنبوة .

وإنه بالنظر إلى صدر الآية الكريمة كذلك ، من زاوية الموضوعات التي تتضمنها الآية الكريمة ، نستطيع أن نفهم أهمية ظاهرة التبني كذلك . إن الآية الكريمة حينما تتحول إلى أكبر نعم الله تعالى وهما نعمتا الرسالة والنبوة يفهم ضمنا أن التوطئة ذاتها ، لها من الأهمية دور كبير هيأها كي تكون المنطلق للحديث عن أكبر نعم الله تعالى على رسوله الكريم . وإن الأمر لكذلك ، لأن القول في صدر الآية الكريمة : ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾

---

(١) الاستبضاع ، طلب المباضعة أي الجماع لتنال به الولد فقط وهذا من الأنكحة التي هدمها الإسلام بطبيعة الحال .

يعني شخص الرسول الكريم ، الذى لم يكن عن طريقه التنبيه نظريا فقط إلى مجانفة قضية التبنى للحق والهدى ، إنما تجاوز ذلك إلى كون محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم نفسه هو الشخص المصطفى كى يكون المنفذ عمليا لوجه الحق والهدى فى هذه القضية ، حينما نسب زيد إلى أبيه فقيل زيد بن حارثة بعد أن كان يدعى زيد بن محمد وحينما تزوج صلى الله عليه وسلم مطلقته . وبما أن كل ما آتانا الرسول الكريم علينا أن نأخذه ، وكل ما نهانا عنه علينا أن ننتهى عنه . وبما أن العناية الإلهية قد اختارت هذه القضية بالذات ، التى عرفنا أهميتها ، هى التى تكون فى صدر الآية الكريمة المنطلق لأكبر نعم الله تعالى على رسوله الكريم . استطعنا أن نفهم أهمية هذه القضية للدرجة التى استحقت أن تكون توطئة . إنها من ناحية جزء مما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم مما ينبغى الأخذ به . ثم إن هذه القضية قد تضافر على تبيين وجه الحق فيها والهدى الجانبان النظرى والعملى . ومن الذى قام بتطبيق الجانب العملى ؟ إنه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وعلى الرغم من كل هذه الأهمية لهذه القضية ، التى غدت - بتبيين القرآن الكريم والرسول العظيم وجه الحق فيها ، كأمس الدابر ، فإن أهم ماعنيت الآية الكريمة بتبيينه هو الشق الثانى المثبت فى الآية الكريمة ، وليس الجانب المنفى فى صدر الآية الكريمة ، مما يفهم منه كون ظاهرة التبنى بالرغم من ضخامتها لما ارتبط بها من أخطار ، ليست فى الحقيقة شيئا ذا بال حينما تقارن بالنعمتين التاليتين عليه

صلى الله عليه وسلم . إن الله تعالى قد أقر عين حبيبه صلى الله عليه وسلم بزوجاته الطيبات وأبنائه الطيبين . وهذه نعمة من أكبر نعم الله تعالى عليه . ولكن أهم هذه النعم وأكبرها نعمتا الرسالة والنبوة . وإن كونه صلى الله عليه وسلم قد اختاره الله تعالى كي يطبق هو نفسه عملية القضاء على ظاهرة التبني بزواجه من زينب ، هو إحدى معطيات نعمتي الرسالة والنبوة . ومن ثم فشق الآية الكريمة الأول يأخذ من شقها الثاني بسبب وثيق . قال تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ .

محمد رسول الله وخاتم النبيين

إن أولى النعمتين اللتين أنعم الله بهما عليه صلى الله عليه وسلم وأكبرهما هي نعمة الرسالة . وقد لاحظنا من الآية الكريمة التاسعة والستين من سورة النساء أن نعم الله تعالى على عباده تتدرج وفق هذا النسق . الرسل ، الأنبياء ، الصديقون ، الشهداء ، الصالحون قال تعالى (١) : ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾ ويلاحظ أن الآية الكريمة تجمع بين طاعة الله تعالى وطاعة الرسول وهذا يذكرنا بقوله تعالى في سورة النساء (٢) كذلك : ﴿ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ لقد جاءت جملة أطيعوا في حق الذات العلية وفي حق الرسول الكريم إشعارا بالطاعة المطلقة . وهذا مظهر من أكبر مظاهر فضل الله تعالى على رسله الكرام . ويلاحظ وراء ذلك أن الآية التالية ، أي السبعين من سورة النساء ، قد أشارت إلى كون هذا الإنعام هو الفضل من الله تعالى ، وأن رسل الله تعالى يجيئون على

---

(١) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) النساء الآية : ٥٩ .

رأس قائمة المنعم عليهم من المرسلين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وبذلك يكون فضل الله تعالى عليهم هو الأكبر كما يشملهم فى المقام الأول قوله تعالى : ﴿ ذلك الفضل من الله ﴾ .

وإن الآية الكريمة من سورة الأحزاب لتنص فى حقه صلى الله عليه وسلم على الرسالة ، أكبر مظاهر فضل الله تعالى ونعمه على الرسول الكريم . قال تعالى :﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله﴾ وهذا يذكرنا بقوله تعالى فى سورة الفتح (١) : ﴿ محمد رسول الله ﴾ .

فإذا تحولنا إلى المظهر الآخر من مظاهر فضل الله تعالى على هذا الرسول الكريم ، تبينا مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم . إن الآية الكريمة لا يجيء فيها النص المجرد على كون محمد صلى الله عليه وسلم نبي الله ، لأن القول: ﴿ولكن رسول الله﴾ يعنى ضمنا أنه نبي الله : « لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس » (٢) إنما الذى يجيء فى الآية الكريمة القول: ﴿ وخاتم النبيين ﴾ فمحمد صلى الله عليه وسلم نبي الله ورسوله ، وهذا مفهوم من القول :﴿ ولكن رسول الله ﴾ ثم هو وراء ذلك خاتم النبيين .

---

(١) الفتح الآية : ٢٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٢ .

إن كلا من الرسول والنبي يشتركان في كونهما يوحى إليهما ويرسل إليهما الملائكة . وينفرد الرسول بكونه مكلفا بتبليغ العباد ما أوحى الله تعالى إليه . أما النبي فمكلف هو بأن يعبد الله تعالى بما تعبده جل وعلا به (١) .

وإذا كنا تبينا مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في النص على كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، لأن نعته صلى الله عليه وسلم بالنبوة مفهوم بالضرورة من نعته صلى الله عليه وسلم بكونه الرسول ، فإن وراء ذلك مظهرا آخر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ، يمكن أن يفهم من القول : ﴿وخاتم النبيين﴾ إن الآية الكريمة لا تقول : وخاتم المرسلين ، إنما تقول : ﴿وخاتم النبيين﴾ وقد عرفنا أن نعمة الرسالة تقتضى نعمة النبوة حتما ، فكل رسول نبي ، ويفهم من هذا أن الوصول إلى مرتبة الرسالة الرفيعة يقتضى المرور بمرتبة النبوة التي تقع قبلها ، فإذا أغلق باب النبوة ، وهو ما يفهم من قوله تعالى : ﴿وخاتم النبيين﴾ فإن في هذا الإغلاق إغلاقا ضمنيا وحتمياً لباب الرسالة . لأن درجة النبوة الحتمية من أجل الوصول إلى درجة الرسالة التي تعلوها قد سقطت من الوجود . وهكذا يتبين من قوله تعالى : ﴿وخاتم النبيين﴾ مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ، لأن هذا القول : ﴿وخاتم النبيين﴾ مع أنه يشير عرضا إلى كون محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم نبيا ، إلا أن الهدف

---

(١) انظر هنا طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ص ٤٥٥ .

الرئيسى للجزئية . هو النص على كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وآخرهم . إن هذه المعانى الرفيعة لم يكن فى الإمكان الوصول إليها دون هذا التعبير بالذات ﴿ وخاتم النبيين ﴾ الذى يعنى ضمنا أنه صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين وآخرهم بطريق الأولى والأحرى وهذا معناه أن القول مثلا : وخاتم المرسلين لا يعنى خاتم النبيين ، لأن درجة النبوة أقل . وهذا التعبير لم يأت فى الآية الكريمة .

وثمة مسألة مهمة مرتبطة بالجزئية الكريمة : ﴿ وخاتم النبيين ﴾ نود أن نتحدث فى شأنها . وفى سبيل ذلك نود أن نتدبر القضايا التى تتحدث فيها الآية الكريمة من زاوية الأهمية . إن ثمة أربع قضايا تتحدث فيها الآية الكريمة وتشملها الأجزاء التالية على التوالى :

١ — ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ .

٢ — ﴿ ولكن رسول الله ﴾ .

٣ — ﴿ وخاتم النبيين ﴾ .

٤ — ﴿ وكان الله بكل شىء عليما ﴾ .

وواضح أن ثمة حذفا بشأن الجزئيتين الكريمتين الثانية والثالثة . وتقدير الكلام فيهما يصح أن يكون على النحو التالى :

٢ — ولكن كان (محمد) رسول الله .

٣ — وكان (محمد) خاتم النبيين .

وبتدبرنا للقضايا الأربع من زاوية أقرب المعانى تناولا وأشدها وضوحا يتبين أن القضية الرابعة هى الأقرب والأوضح : ﴿وكان الله بكل شىء عليما﴾ والمعنى أن الله سبحانه وتعالى خالق الكون والذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس أبا أحد من رجال المؤمنين ولكن كان رسول الله وخاتم النبيين . وبهذا يتبين أن القضية الرابعة قائمة على القضايا الثلاث السابقة ومبنية عليها . وهذا هو معنى القول إن هذه القضية تعتبر أقرب القضايا تناولا وأشدها وضوحا .

فإذا تحولنا إلى القضايا الثلاث السابقة ، لفت انتباهنا أداة الاستدراك لكن ، التى يفهم منها الإعراض عما قبلها وشد الانتباه إلى مابعدها باعتباره محط الاهتمام . وبتدبرنا للسباق يتبين ذلك بوضوح . إن القول فى صدر الآية الكريمة :﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ينصب على محمد صلى الله عليه وسلم من زاوية نفى الأبوة عنه لأى رجل من رجال المؤمنين . إننا بصدد معنى منفى ، القصد منه نفى أبوة محمد صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة بالذات لارتباط الجزئية الكريمة الأولى ، بزواجه صلى الله عليه وسلم من زينب مطلقة زيد متبناه ومولاه من قبل . إن كل ما له علاقة بهذه القصة وبعادة العرب انتهى بتبيين رب العزة وجه الحق والصواب فى هذه المسألة . فلا حرج عليه صلى الله عليه وسلم — وعلى المرسلين السابقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — فيما فرض الله تعالى له . وحينما أرادت الآية الكريمة أن تنص على أكبر نعم الله تعالى

على رسوله الكريم ، وهما نعمتا الرسالة وختم النبوة ، اتخذت من نفى أبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأحد من رجال المؤمنين منطلقا لذلك . كى تثبت الرسالة وختم النبوة . ومعروف أن النفى غير الإثبات وأن التوطئة بنفى الأبوة غير الصميم والقلب بإثبات الرسالة وختم النبوة ، ثم إن نفى أبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم لأحد من المؤمنين يعنى زيدا وغير زيد ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يعش له ولد ذكر بلغ مبلغ الرجال . وبهذا يتبين أنه بالإضافة إلى كون عادة التبنى قد انتهى كل ما يتعلق بها بتبيين رفع الحرج عنه صلى الله عليه وسلم فيما فرض الله تعالى له ، فإن العلاقة بين الحديث عن هذه القضية وبين صدر الآية الكريمة: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ تتركز فى نفى وجود الابن من الصلب له صلى الله عليه وسلم ، لحكمة أرادها الحكيم الخبير ، فلا مجال للحديث فى هذا الجانب مطلقا بما فى ذلك قصة زينب بنت جحش ، إنما الجانب المهم بشأنه صلى الله عليه وسلم والذى ينبغى اهتمام كل المسلمين به هو كونه صلى الله عليه وسلم رسول الله وخاتم النبيين . وبهذا يتبين أن ثمة قضيتين رئيسيتين عنيت الآية الكريمة بهما عناية بالغة وقد جاء التعبير عنهما فى قوله تعالى : ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ . والمعنى كما قلنا من قبل يصح أن يكون فى هذه الصورة : ولكن كان محمد رسول الله وكان خاتم النبيين .

وإنا لنود أن نتدبر كلا من المعنيين المهمين على حدة . فمع أول المعنيين أو أولى القضيتين . لقد لاحظنا أن الآية الكريمة يجىء

فيها القول : ﴿ولكن رسول الله﴾ وليس ولكن نبي الله، لأن مراد الآية الكريمة التنبيه إلى أكبر نعم الله تعالى على عبد من عباده . وأكبر هذه النعم على الإطلاق نعمة الرسالة وهاهي ذي الآية الكريمة تنص على ذلك . ولكن رسول الله . وقد عرفنا أنه يندرج تحت هذه النعمة نعمة النبوة التي تقل عن الرسالة درجة ، ففي ذكر نعمة الرسالة غناء عن ذكر نعمة النبوة .

فإذا تحولنا إلى ثاني المعنيين أو ثانية القضيتين تبينا — كما لاحظنا من قبل — أن الجزئية الكريمة تضيف جديدا لا يكاد يقل أهمية ودلالة على فضل الله تعالى على الرسول الكريم عن نعمة الرسالة . وهذا الجديد الذي تضيفه الجزئية الكريمة التالية ﴿وخاتم النبيين﴾ هو كون محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، أي آخر النبيين . وبما أن كل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا ، ففي النص على كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، نص ضمني على أنه صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين كذلك، لأن ختم النبوة ، وسد بابها إلى يوم القيامة بعد محمد صلى الله عليه وسلم معناه إغلاق الباب الوحيد المفضي إلى الرسالة وسد الطريق المؤدي إليها . أعني باب النبوة وطريقها. لقد لاحظنا أنه لامعنى للقول: وخاتم المرسلين ، « لأنه يفتح باب النبوة ، ولا معنى للإشارة إلى كونه صلى الله عليه وسلم أحد النبيين لأن في النص على الرسالة نصا على النبوة . ومن كل ذلك يفهم أن المعنى الجليل الأول في الآية الكريمة هو النص على رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وأن المعنى الجليل الثاني

فى الآية الكريمة ، والذى هو فى مستوى أهمية المعنى الأول هو النص على كون محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين أى آخر الأنبياء والمرسلين . وقد تضافرت على هذه الحقيقة أحاديث نبوية كثيرة » . عن الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى دارا فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ! فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » ورواه الترمذى (١) وعن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبى » قال : فشق ذلك على الناس فقال : «ولكن المبشرات قالوا يا رسول الله : وما المبشرات ؟ قال : رؤيا الرجل المسلم ، وهى جزء من أجزاء النبوة » وهكذا رواه الترمذى (٢) وما أكثر الأحاديث النبوية الشريفة فى هذا الشأن .

وبتحولنا إلى معاجم اللغة العربية ، يتبين لنا أن كل المعانى المرتبطة بالمواد المشتقة من الأصل « ختم » يرتبط بها الختم بمعنى الانتهاء . فمعنى خاتم الأنبياء آخر الأنبياء . وربما صادفنا فى هذا المجال من باب المشترك اللفظى أن لفظة خاتم ، إضافة إلى إفادتها الانتهاء هى تدل على ما يوضع فى الإصبع .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٩٣ .
(٢) تفسر ابن كثر ٣ / ٤٩٣ .

ومع أن هذه اللفظة بهذا المعنى لا علاقة لنا بها ، فإنا نود أن نبين أن هذه الحلقة التى توضع فى الأصبع إنما كان هذا اللفظ ، « خاتم » من نصيبها ، بسبب الدور الذى تقوم به مما له علاقة بالخاتمة والنهاية ، وتفسير ذلك أن العرب قبل الإسلام كانوا فى مجموعهم أمة أمية . وبما أن الأمى فى معاملاته لا يستطيع أن يستعمل القلم ، إنما يلجأ إلى وسيلة أخرى لا يزال يستعملها حتى هذه اللحظة الأميون ، وهذه الوسيلة هى الختم على الوثيقة بالخاتم . وبما أن التوقيع إنما يكون فى ختام المكاتبات أى فى نهايتها ، فإن هذا المعنى علق بهذه الآلة التى يختم بها ، والتى يستوثق بها فى ختام المكاتبات كالتوقيع بالقلم والبصم بالإبهام وهكذا .

وبما أن هذه الوسيلة ينبغى أن تكون فى مكان أمين ، بعيدا عن أيدى العابثين ، وفى الوقت ذاته ينبغى أن تكون قريبة التناول من صاحبها الذى قد يحتاج إليها كل حين ، فقد كان من الضرورى أن تكون هذه الوسيلة فى مكان أمين وقريب ، وليس أقرب من يد من يعنيه الأمر ولا آمن ، ومن هنا وضع الخاتم فى الأصبع . وبمرور الأيام ، وخاصة بسبب انتشار التعليم قل استعمال الخاتم فى المكاتبات ، فقلت الكتابة على الخاتم ، الذى ظل يحمل الاسم الذى وضع من أجله ابتداء ، وهو الختم فى ختام المكاتبات ، هذا إلى أن وظيفة هذا الخاتم قد تحورت كثيرا ، فأصبح يستعمل للزينة كثيرا وللختم قليلا . وعموما فإن هذا التحور فى وظيفة الخاتم أو الاشتراك فى وظيفته أمر مستحدث ، وفى كل الأحوال تنحصر علاقة لفظ

خاتم فى الآية الكريمة بالمعنى الأصلى القديم ، وهو كونه صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وخاتمهم ، ولا علاقة لهذا اللفظ مطلقا بلفظ خاتم الذى يستعمل فى ختام المكاتبات والوثائق برغم أن هذه الوسيلة ذاتها إنما أطلق عليها هذا اللفظ « خاتم » للدور الذى تقوم به فى ختام المكاتبات والوثائق . ومن باب أولى ألا يكون للفظ « خاتم » فى الآية الكريمة علاقة مطلقا بالمعانى المستحدثة التى اكتسبها لفظ « خاتم » خلال العصور ، لأن العلاقة منبتة أساسا بين الآية الكريمة وبين الوسيلة المادية للختم . وبهذا يتبين أن قوله تعالى: ﴿وخاتم النبيين﴾ يشير إلى قضية غاية فى الخطورة والأهمية تسامى القضية السابقة التى أشار إليها قوله تعالى : ﴿محمد رسول الله﴾ . وبهذا يتبين كذلك أننا بصدد قضيتين رئيسيتين فى الآية الكريمة هما على التوالى :

١ ــ محمد رسول الله .

٢ ــ محمد خاتم النبيين بمعنى آخرهم .

وإذا أردنا أن نستشير المعاجم العربية فى هذا الشأن ، فإنا نود أن نلجأ إلى أنفعها فيما نحن بصدده وهو المعجم الذى يهدف إلى جمع شتات الألفاظ المشتقة من أصل واحد ، وينص على المعنى المشترك بين تلك الألفاظ إن هــذا المعجم هــو معجم مقاييس اللغة لابن فارس الذى يقول فيما نحن بصدده (١) : « الخاء والتاء

---

(١) ٢/ ٢٤٥ تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م حلبى مصر . والزيادة بين القوسين من لسان العرب وفيه أخذت ختامى .

والميم أصل واحد ، وهو بلوغ آخر الشيء » . يقال : ختمت العمل وختم القارىء السورة . فأما الختم وهو الطبع على الشيء ، فذلك من الباب أيضا . لأن الطبع على الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره في الإحراز . والخاتم مشتق منه لأنه به يختم ويقال : الخاتم والخاتام والخيتام قال :

يا هند ذات الجورب المنشق أخذت خاتامى بغير حق

والنبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لأنه آخرهم . وختام كل مشروب آخره . قال الله تعالى (١) : ﴿ ختامه مسك ﴾ أى إن آخر ما يجدونه منه عند شربهم إياه رائحة المسك . والمعروف أن الإمام أحمد بن فارس من علماء القرن الرابع الهجرى ، فقد ولد سنة ٣٢٩ وتوفى سنة ٣٩٥ هـ (٢) .

---

(١) سورة المطففين : ٢٦ .
(٢) الأعلام للزركلي .

النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم

من الصفات التي خص الله تعالى بها المصطفى صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم . كونه عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين من أنفسهم . وقد أشارت إلى هذه الصفة الآية الكريمة السادسة من سورة الأحزاب . قال تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا كان ذلك في الكتاب مسطورا ﴾ فالمصطفى صلى الله عليه وسلم أحق بالمؤمنين من أنفسهم ، عليهم أن يحبوه أكثر من حبهم أنفسهم ، وأن يكون هواهم تبعا لما جاء به ، وأن يفدوه بالنفس والنفيس ، ولو أننا جمعنا بين الجزئية الكريمة التي نحن بصددها والجزئية الكريمة التي تليها ، قال تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ لتبينا أكثر من ملاحظة فريدة في بابها . ومنها :

أولا : لقد نال أزواج المصطفى صلى الله عليه وسلم بسببه شيء من فضل الله تعالى . فأزواجه عليه الصلاة والسلام ، نزلهن رب العزة من المؤمنين منزلة الأمهات ، وبالتالي كان لهن بعض أحكام الأمهات ، من وجوب تعظيمهن واحترامهن وتحريم نكاحهن (١) .

---

(١) انظر مثلا تفسير الكشاف ٢ / ٥٣١ .

ثانيا : تجيء هذه المنزلة الرفيعة لأمهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهن فى السورة التى تبين نوع العلاقة الخاصة بالأم ، حينما تنص بصريح اللفظ على أن الزوجة المظاهر منها لا تتحول أماً أبداً . جاء فى الآية الكريمة الرابعة قوله تعالى : ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم﴾ .

ثالثا : إن تنزيل القرآن الكريم زوجاته صلى الله عليه وسلم منزلة الأمهات من المؤمنين ، يقذف إلى الأذهان تواً ، فى حقه عليه الصلاة والسلام ، بمنزلة الأبوة من المؤمنين ، لأن للوالدين فى الإسلام منزلة فريدة فى بابها . وكان من نصيب أزواجه صلى الله عليه وسلم منزلة الأمومة من المؤمنين ، وبقيت إذن منزلة الأبوة . وهنا نتبين أن الآية الكريمة تتجاوز فى حقه عليه الصلاة والسلام منزلة الأبوة الرفيعة ، بل إنها تتجاوز أعلى المنازل ، أعنى حب الإنسان نفسه ، كى تقرر بصريح اللفظ بأن النبى صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم . إن زوجات المصطفى صلى الله عليه وسلم ينلن من المؤمنين أعلى درجة يمكن أن تنالها امرأة ، إنها منزلة الأمومة . أما المصطفى صلى الله عليه وسلم فإن الآية الكريمة تخصه بمنزلة لا تكون لغيره من عباد الله تعالى ، بأن يتجاوز منزلة الوالدين ، ومنزلة نفس المرء لديه . وهنا يأتى فى الآية الكريمة صيغة التفضيل أولى . قال تعالى : ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ .

ولا شك أن المنزلة التى خصت الآية الكريمة بها المصطفى صلى الله عليه وسلم تفوق منزلة الوالدين معا ، خاصة إذا عرفنا أن حظ الوالدة من البر ، كما يفهم من حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ينبغى ألا يقل عن ثلاثة أمثال حظ الوالد فى الصحيح : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » وفى الصحيح أيضا أن عمر رضى الله عنه قال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا نفسى ، فقال صلى الله عليه وسلم : «لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك » فقال يا رسول الله : والله لأنت أحب إلى من كل شىء حتى من نفسى فقال صلى الله عليه وسلم : «الآن يا عمر» ولهذا قال تعالى فى هذه الآية : ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾(١) ومعنى القول : الآن يا عمر ، الآن كمل إيمانك يا عمر .

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٧/٣ .